غرام الكبار

أنطون الجميل

مؤسس صالون مي

obeikan.com

obeikan.com

أنطون الجميل صحفي ومفكر لبناني كبير ولد عام ١٨٨٧ من أبرع صحفيي عصر النهضة. ولد في بيروت ودرس في الجامعة اليسوعية حيث بدأ ممارسته الصحفية في مجلتها البشير١٩٠٦ م.

سافر إلى مصر عام ١٩٠٧م وبدأ حياته المهنية أمينًا لوزارة المال في القاهرة .غير أن الصحافة كانت تستهويه أكثر من الوظيفة فأسس عام ١٩٠٧م مجلة الزهور بالاشتراك مع أمين تقي الدين. وكانت منبرًا لكبار أقلام العصر من الشعراء والكتاب من أمثال: شوقي وحافظ ومطران والمنفلوطي وولي الدين ومي زيادة والزهاوي وشبلي شميل وآخرين وقد عرفت بمستوى فكري عال ومناخ صحفي راق. في عام ١٩٠٩م أسس حزب الاتحاد اللبناني ليناهض الحكم العثماني في بلاده وجعل الزهور منبرًا له .كان يكتب فيها الموضوعات السياسية والاقتصادية والثقافية وظل يصدرها حتى عام١٩١١ م.

انتخب عضوًا في مجلس الشيوخ في مصر ١٩٣٤– ١٩٤٥م. وخلف داود بركات في رئاسة تحرير الأهرام عام ١٩٣٣م وبقي في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٤٨ م .

قال عنه ناصر الدين النشاشيبي :

ولم تشغله الأهرام انطون الجميّل عن الوقوع في هوى الكاتبة اللبنانية –المصرية- الفلسطينية الآنسة ميّ زيادة وراح يمطرها برسائل الحب والشوق . وهو القريب من افراد عائلتها المقيمين يومذاك في مصر. وكان عمره لا يزيد على خمس وعشرين سنة وكانت هي تكتب في جريدة والدها «المحروسة» يوميات أدبية وكان هو أول قرائها والمعجبين بها كثيراً.

وعندما طفح الكيل واستبد الهوى بالشاب الأديب المولّه انطون الجميّل كتب إلى «مي» في ربيع عام ١٩١٢ رسالة يبدي فيها إعجابه الفائق بكل ما تكتبه ويقول لها

مخاطباً: «يا وليدة جبل الزيتون ويا ربيبة جبل الأرز ويا فتاة وادي النيل ما أجمل أن تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب انه خلود الفكر وهو أجمل من خلود النفس. وأنت لست بالغريبة عن هذه الأرواح الخالدة كما انها ليست بالغريبة عنك فمحبو الجمال كمحبي الحقيقة أولاد طين واحد بل أبناء أسرة واحدة..».

ثم يقول لها:

«.. أنا لا أكتب إليك فرطاً فلقد طالما عرفك المعجبون بأدبك الزاهر وعلمك الوافر كاتبة تستولد فؤادها الرقيق أسمى العواطف فتلبسها مما تحكيه مخيلتها الفنية حلّة قشيبة وتجمّلها بجواهر عقلها السليم.. لا! أنا لا أكتب لأقرظ تلك التي تقرظها أعمالها وحياتها الفكرية بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدى تلاوتي لتلك الصفحات من يومياتك..».

ونقل لها عن إعجابه الشديد بإشارتها للغرفة التي كانت تضم صور المفكرين الكبار والتي وصفتها الأديبة ميّ في يومياتها قائلاً لها:

لقد صدق الشاعر العربي - يا ميّ - حين قال:

واستجمعت دار هند ما تكلمنا   والدار لو كلّمتنا ذات أخبار

ألم يدرك شعراء العرب هذه العاطفة أحسن من سواهم حينما كانوا يستهلون قصائدهم بتحية الاطلال البالية وندب الربوع الدارسة؟

ثم ينهي قائلا لها في رسالته:

«.. لعل تلك الأرواح تطل علينا من عالمها الثاني وتشاركنا في دموعنا وابتساماتنا ولا شك أنها ترثي لحالنا بل تضحك منا. تضحك من أفراحنا ونحن نعتقد أنه لم يعرف الفرح أحد قبلنا وتضحك من احزاننا ونحن نتوهم أنه لم يشعر بالحزن في قلب غير قلوبنا وتضحك من حبنا ونحن نتصور اننا دون سوانا قد اخترعنا «الحب». هذه

السطور يا ميّ علّقيها على حاشية يومياتك بحرف ضئيل ولعلك فاعلة فينعكس عليها شيء من نور فكرك الثاقب يجعل لها بعض الرونق في عينك المتأملة..».

التوقيع: انطون الجميّل! ثم عاد وكتب إليها بعد عام واحد من تاريخ الرسالة الأولى رسالة ثانية في عام ١٩٢٦ قال لها فيها:

«.. يلذ لي يا ميّ أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب لأن كل وصف قليل إذا قيس بصفاتك وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك فاسم «ميّ» وكفاك به من اسم ولقب قد أصبح في هذا الجيل ليرادف حسن البيان وفصاحة اللسان ونبوغ العقل وكبر القلب».

ويصف أسلوب خطّها فيقول لها:

«.. والله ما رسم خطك إلا كل بديع طريف ولا عبرت حروفك إلا عن كل سام ظريف..».

ثم يشير إلى ما أصاب عينها من التهاب طارئ فيقول لها:

«.. ساءني جداً ما أصاب عينك اليمنى سلمت عينك اليمنى واليسرى بل سلمت فيّ كلياتك وجزئياتك وقد تجدين في هذا الدعاء الخالص وهذا التمني الصادق شيئاً من الأنانية ما دمت تعتقدين أن الأنانية أساس جميع أعمالنا وعواطفنا فليكن ذلك أليس ورم جفنك الذي أخّرك عن الكتابة فحرمني التمتع بكتابك قبل اليوم؟..».

وكان يدللها ويوقّع خطاباته الغرامية لها باسم «لوتر بيبي».. بالفرنسية وتعني «الطفل الآخر». ويقول لها وهو مسافر إلى الاسكندرية ولم يستطع أن يقابلها لكي يودعها:

«.. لقد بلّغت البحر ما زودتني له من سلام وتحيات.. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعني إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ـ أي شرفة منزل ميّ ـ

ذات الفضل العميم عليّ في مثل هذه الساعة فأقف طويلاً عن الكتابة ضائعاً في بحار الذكريات بل ان الكلمات تعصاني فأبحث عنها ولا اجدها استودعك الله يا «بيبي» على أمل أن ألقاك بخير وعافية وقد أصبحت أنا «فوتر بيبي»...».

التوقيع: انطون الجميّل

وكنت أقرأ هذه الرسائل العاطفية وأشعر بأن هذا الرجل الرقيق الجنتلمان ـ أعني انطون الجميّل ـ كان مجرد ضحية غرامية أخرى من ضحايا مي زيادة التي أحبها العشرات من قبله وأحبت هي العشرات من قبله ومن بعده ...

مثله مثل: عباس العقاد وجبران خليل جبران وغيرهما.

وكنت أتصور هذا الشاب الأنيق المهذب وعمره يومذاك ٢٥ سنة فقط وهو يقع في حب مي عن طريق الأدب وهو الضائع في غربته عن بلده وفي ظروفه المتواضعة ابان وصوله إلى مصر قادماً من لبنان..

ان الحب يبقى فاكهة ومتعة ورفاهية عند الأغنياء لكنه يتحول إلى شعور باليأس والألم والوحدة والتشرد والفقر عندما يصيب الفقراء والغرباء! وعندما عرفت انطون باشا الجميّل في الأربعينات كان في الذروة اسماً وثروة وسمعة. لكنه عندما أحب مي في العشرينات كان مجرد راكب في قطار مسافر الى المجهول.

ولا شك أنه أحب ميّ ولا شك أنه كان يطمع ويتمنى الزواج منها ولا شك أن مركزها الاجتماعي والأدبي كان مشجعاً له على أن يواظب المراسلة ويستمر في طرح الهوى إلى أن يحقق مناه.

ولكن..عاش انطون الجميّل ـ بعد ميّ ـ وحيداً .. ومات وحيداً.

وقيل ـ والعهدة على الراوي ـ أن أرملة تقلا باشا صاحب «الأهرام» كانت تتمنى الزواج منه لو طلب يدها.